في ما يتعدّى الماركسية

بقلم كمال جنبلاط

نكاد تنحصر القيمة النظرية المعتقدية للماركسية ، وفعاليتها العملية sa valeur opérationnelle ، في مفهومين رئيسيين جاءت بهما ولكنها لم تبدعهما ، بل أوضحت أهميتهما في مواجهة الوجود الظاهر والفكر الانساني ومبادرة العمل ، وركزت اليهما نظرتها الشاملة للاشياء :

أولا : مبدأ التحول والصيرورة le Devenir الذي اقتبسه واستوحاه كارل ماركس من ديموقريطس Démocrite وهيراكليتس Héraclite ، وقد كرس لهما اطروحته سنة ١٨٤٦ ، أي في السنة التي ظهر فيها كتاب داروين Darwin ، وقبل عشر سنوات من اصداره للجزء الاول من مؤلفه « رأس المال » .

ثانيا : مبدا النسبية la Relativité ، وهو في الواقع متمم للاول في مستوى التحرك والابداع . واذا تعمقنا في معنى النسبية واطلاقها نرى أنها ، أكثر ما كان يعتمدها لاجله ماركس وانجلس : هو أن الاشياء قائمة في ثنائية تناقضها بعضها مع بعض ، أي بالتالي ليست قائمة ، ليست موجودة بحد ذاتها .. وطبعا لا يذهب ماركس الى الاستنتاج الاخير من منطق التفكير ، أي أن الصورة لا تكون الا بابصار العين لها ، والصوت الذي هو في حقيقته محض تموجات هوائية ، لا يقوم ولا يوجد الا بالنسبة للاذن السامعة . ولكن ماركس يتوقف عند النسبية في الشطر الاول من المبادهة العقلية ، اي عند تناقض الفعل ورد فعله المتسلسل ، تناقض الشيء بما يثيره في مقابلته . ويجب أن لا ننسى أن للماركسية قيمة تعاملية ، قيمة تأثير واستثارة ، أكثر من قيمتها العقلية العلمية ، وانما وضعت كمنهجية للعمل وكأداة فكرية لتبديل المجتمع على حد تعبير ماركس :

« Jusqu'à maintenant les philosophes cherchaient seulement à interpréter le monde; la question est maintenant de le transformer. »

« حتى حين كان الفلاسفة يحاولون أن يفسروا العالم ، والمطلوب الان هو تبديله .. »

وهذه النظرة النسبية ، التي سيتبناها ويوضحها أينشتين Einstein في النظرية النسبية المحدودة la Relativité limitée وفي النظرية النسبية العامة او المعمة la Relativité généralisée نراها ماثلة في التفكير البشري منذ بداية عقله للوجود ، قبل اليونان بعشرات القرون ، في مصر القديمة وفي المسالك العرفانية الهرمسية « لذي امحوتب » ، وقبله ايضا ، اي في بداية الالف الرابع قبل المسيح ، وفي الهند اعماق للتاريخ لا يمكن تحديدها علميا ، وفي الصين القديمة كذلك ، وفي ايران . كما ان نظرة التحول والصيرورة تلازمها في القدم ، وتتعلق بها في التزام عجيب اصيل .

فالمتطلع الى تلك الحقبات الغابرة من سالف العصور ، لا بد له أن يتأمل ، بدهشة وبتواضع كلي ، سبق الاقدمين في مجالي اكتشاف العقل والتعمق في تفسير وتصور الوجود .

وكم كنت أود أن يتوفر لبعض اخواننا ممن يعالجون قضايا الفكر ان يقرأوا كتبا ثلاثة لا أكثر :

ــ التعليم السري لهرمس الهرامسة Corpus Herméticum

ــ والمصدر الواحد للفلسفة والعلم في الشرق الاقصى L'Origine unique de la philosophie et de la Science de l'Extrême Orient. للعالم الياباني Sukurazawa وقد قدم له ماسون اورسل Masson Oursel والسييف Elisséev

ــ وأحد كتب الفيدنتا لفيفيكننندا اورامانا مهاريشي اوشري أتماننندا ..

أما نظرة التحول والصيرورة ، فان ماركس يتبناها في مقابل ولنقض فلسفة القرون الوسطى المسيحية المتجلية بشكل خاص في المحاولة الاكوينية القائلة بمبدأ موافقة الشيء أو الشخص لذاته ووحدته من خلال الزمن Le Principe d'identité ، هذا المبدأ الذي حاول المنتفعون استغلاله لتجميد الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية وحتى الفكرية منها ، القائمة في عصرهم .

وكان لا بد للعلم الحديث المتطور بسرعة بفضل اكتشاف بعض سنن الطبيعة أن يصطدم بهذا الطوق الموضوع والحصار المضروب حوله ــ وقد لاقى في مواجهته الاضطهاد والاستشهاد احيانا كما حدث لغاليلي وجوردانو برونو Giordano Bruno وسواهما .. وكان على العلم أن يرحب بجميع المحاولات التحررية في الحقل السياسي (بالثورات الديموقراطية) وفي الفكر (الثورة على التقليد) ، على أن القدر يشاء أن يعود الحكم السوفياتي في العهد الستاليني ينهج نهج الكنيسة في القرون الوسطى فيضطهد بعض كبار العلماء مثلا .. كالقائلين بنظرية مورغان ومندل للوراثة في علم الاحياء او الحياة Biologie كتشتفريكوف Chetverikoff وفري Ferry وافرويمسون Ephroimson الذين أرسلوا الى معتقلات سيبريا ووضع ليفتسكي Levitsky في معسكر للعمل الشاق ، واختفى أثر ليفيت Levit وفافلوف Vavlof وهما من كبار علماء Génétique علم الوراثة وذوا شهرة عالمية ، وسواهم الكثيرون ممن ذاقوا طعم الطغيان الستاليني المعتقدي وعقد تفكيره الدوجماتيكي Dogmatique . وفي همسة اسرارة من ستالين للجنرال ديغول قال له هذا القيصر الراهب الكبير : « C'est toujours la mort qui gagne » . « ان الموت هو دائما الرابح ! . » . وامر ستالين بقتل الترجمان المسكين فورا بعد المقابلة ، لكي لا يذيع ما جرى فيها . وتذكرون أن نظريات أينشتين ظلت غير مرضي عنها وغير مقبول بها في العهد الستاليني ، والاغرب أنها أصابها الحرم ذاته من جانب النازية المستولية على الحكم انذاك في ألمانيا ..

وفي الولايات المتحدة وقعت حادثة طريفة في عهد انتشار الماكارثية وسطوة صاحبها : جيء بشكوى خطية أمام لجنة التحقيق في مجلس الشيوخ تدعي أن فنانا صور حواء ولها « صرة » في وسطها ، كما هي حال جميع أبناء البشر ، فاتهم المصور بالشيوعية لانه على حد تعبير الشاكي ينكر طريقة خلق حواء وفق تعبير التوراة من ضلع ادم لا من صرته ..

واليوم باسم الحرية ، ماذا يفعلون في الفيتنام .

اننا ذكرنا ذلك للتدليل على أن الفكر عندما يضحى متحجرا مغلقا في معتقد ما ــ أيا كان هذا المعتقد ، سياسيا أم فكريا أم اجتماعيا أم علميا ــ يشكل خطرا على صاحبه وعلى الاخرين .

فالماركسية ، في مواجهتنا الصائبة لها ، هي اتجاه في التفكير وفي التفسير وفي العمل لا أكثر . فعندما نريد أن نضعها في قوالب للحرف وصور وايات للفكر لا تتغير ، تفسد بقوالبها ويفسد العقل بها

– هذا هو شأن المعتقدات الفكرية والفلسفات الاستكشافية الوجودية، وشأن الاديان على السواء .

وبعد ، ان مجرد اعتقادنا أننا نملك الشكل الاخير للتطور ، ونختزن المفاهيم الوحيدة للحقيقة ، يجعلنا نبتعد عن التطور ، عن مبدأ التحول والصيرورة ، ويعود بنا الى نظريات المطلق والى مبدأ مطابقة الشيء وموافقته الدائمة لذاته le principe d'identité أي الى نقيض المنحنى الذي سعينا منه في استطلاع المعرفة .

الماركسية هي مواجهة للاشياء، واتجاه في تفسيرها وفي معاملتها، ونهج في استشرافها ، وليست معتقداً أو مجموعة من الحقائق العقائدية، لان هذه الحقائق هي نسبية زمنا ومكانا وتراثا وعلما ، فكيف يصح أن نتمسك بها أو نتعصب لها ، فتقيدنا برباط حرفيتها .. ويتحول المفهوم الفكري الى صنم ، تماما كما عبر عن ذلك ماركس في انتقاده للاديان :

« En dehors de la nature et des hommes, il n'y a rien, et les êtres supérieurs créés par notre imagination religieuse ne sont que le refflet fantastique de notre être propre. »

« خارجا عن الطبيعة وعن الانسان ، لا يوجد شيء .. أما الكائنات العليا التي خلقتها مخيلتنا الدينية فهي انعكاس خيالي مدهش لكياننا الخاص ».

وكان جلال الدين الرومي يقول :

« Yourself is the mother of all idols; the material idol is a snake, but the spiritual idol is a dragon. »

« نفسك هي أم جميع الاصنام ، الصنم المادي هو ثعبان ، أما الصنم الروحي فهو تنين .. »

وهذا المنحنى من المنطق يقودنا الى الاعتبار التالي الذي لم يعره ماركس الاهمية الضرورية في تحليله ، ربما لانه في انتقاضه على هيغل Hegel ، بعد أن تبناه سنوات عديدة ، لم يدرك تماما ذاك التناقض الداخلي في صميم الانسان بين العقل الذي تتجلى فيه الحرية، وقدرة التمييز ، وتحرك الارادة ، وبين الفكر الذي هو اسم لوظيفة ومجموعة من الصور الفكرية تعكس رموز العالم الخارجي وصوره الحسية، تماما كما أوضح ذلك ماركس في قوله :

« Pour Hegel, c'est le processus de pensée lui-même qu'il transforme, sous le nom d'Idée, en un sujet absolu, qui est le démiurge de la réalité. Chez moi, au contraire, les idées ne sont rien d'autres que les choses transformées et traduites dans la tête des hommes. »

« بالنسبة لهيغل ، هو نهج وتسلسل الفكر ذاته الذي يحوله ، تحت اسم الفكرة ، الى مدرك أو شخص مطلق ، وهذا هو الخالق والمبدع للوجود .. أما بالنسبة لي ، فعلى نقيض ذلك ، فان الافكار ليست شيئا الا الاشياء التي انتقلت الى رأس الانسان ، وعبر عنها فيه .. » .

هذا التناقض بين الفكر والعقل ، أو بالحري بين الفكر والعقل الارفع أو العقل الكلي على حد التعبير الحكمي السالف والذي يصدر منه النور اللطيف الذي به يدرك العقل العادي الافكار ، لم يتنبه اليه ماركس على خطورته .. والذي نراه في العالم الخارجي من تناقض اجتماعي وسياسي ليس الا انعكاسا لهذا التناقض الصميمي بين الافكار والنظريات التي تركزت وأضحى لها ثقل التقليد ، ووزن العادة، وتوجهت في أقنية للشعور مستولية متعارفة ، وبين العقل الكلي الذي هو محض حرية في تقديره وفي تمييزه ، أي في النهاية هذا التناقض بين قدرية الافكار والعواطف وبين حرية الصفة المميزة العاقلة في الانسان . هذا الثقل النوعي للافكار المتعاهدة ، والتي تعود المرء أن ينظر من خلالها ، هي ماثلة في الفرد وفي المجتمع على السواء،ويسميها مري Marray التراكيب الموروثة inhentes conglomerotes أو التراث المتركب المتكدس ، وهو في المجتمع يقابل الـ complexes أي المركب وعقدة المزاج أو الشبكات الفكرية Schèmes mentaux عند الافراد .. والحافظة الاجتماعية والذاكرة الفردية هي بحد ذاتها أضخم مجموعة للقوى الجامدة المقررة والمتحددة فينا لاتجاهاتنا العامة.

فمن هذه المواجهة أيضا ، يجب أن نتعدى الماركسية لنفهمها أكثر في اعتمالها بالظواهر البشرية ، ولندرك بعض نقائص تفسيرها للوجود الاجتماعي وللانسان .

***

واذا ما انطلقنا من هذه المقابلة ومن هذه المواجهة للتناقض بين الفكر والعقل ، بين القدر والحرية ، بين حتمية التسيير وأرجحية الارادة ، فاننا نجد أنفسنا في مواجهة انتقادية ثالثة للماركسية نوجزها بما يلي :

لو كان الفكر محض انعكاس لصيرورة الاشياء والوقائعفي الخارج، وامتداداً لها بجوهره ومادته ، لما تمكن من ادراكها ووعيها . وكيف يمكن للمتحول مع الاشياء في وتيرة وايقاع تحولها ذاته ، أن يعرف هذا التحول ويدرك الاشياء والوقائع من خلاله ؟ . وبعبارة أخرى كيف يمكن للمرآة أن تدرك الاشكال المنعكسة في جوهر زجاجها ، ان لم يكن فيها شيء ثابت قائم بذاته هو المعرفة ، هو الوعي ، وهو من غير مادتها . والا لاستطاعت زجاجة المرآة أن تدرك كما يدرك الانسان .

ويجب الاعتراف أن ماركس يحاول أن يتعدى مشكلة الثنائية لانه، بشكل أو باخر ، يجعل المادة تدرك الافكار من خلال انعكاس هذه الافكار في الانسان . فهو يريد أن يتخلص ، مهما كلفه الامر ، من التناقض الذي أوجده هيغل Hegel بين المادة والعقل ، لان في هذا التناقض ، في الواقع ، تكمن أزمة الانسان الحقيقية واستقطابه الى محورين متعاكسين ، وصلبه على خشبتي الازدواجية والثنائية ، التي لا يطمئن لها العقل في نهاية استشرافه وفي سدرة استقصائه ، لانه يطلب وحدة التفسير ، يطلب وحدة الوجود . وقد عانى ماركس ، على ما يبدو ، الكثير من ذلك التنافر ، وهذا ما يفسر لنا تحوله عن هيغل Hegel الذي اعتنقه في بادىء الامر ، رغم ما استساغه من جدليته ، ولكن من خلال فيورباخ Feurbach . وقد حاول هذا الاخير أن يلغي هذا التناقض في تركيز وحدة الوجود الى مفهوم المادة matière ، وهذا التعبير ، بالرغم من انه مفهوم غير واضح ، وقد يعني أشياء عديدة ، وانه هو في النهاية تصور فكري Concept mental نقع عليه من خلال الحواس ، على انه اتجاه موحد على الاقل في اجتذاب التفكير وفي طلبة التفسير ، ولو الى مجهول هو ذاته .. ونحن لا نعرف شيئا عن حقيقة « المادة » ، الا ما تقدمه لنا الحواس من صور عنها معبرة رمزية .

وفي سعيه لتعدي الثنائية ، يتصور ماركس أن الفكر أو العقل esprit – لانه يصعب تعريب هذه الكلمة بمدلول واحد – ليس الا تفتحا وتطوراً رفيعا متعاليا للمادة : فيقول :

« La matière n'est pas un produit de l'esprit, mais l'esprit n'est lui-même que le produit supérieur de la matière. » (Engels).

« ليست المادة نتاج العقل بل العقل ذاته هو النتاج الرفيع للمادة . » (انجلس) (Enge's) .

ولكن يبدو أن العقل أو الفكر الذي هو غاطس في المادة ، مغمور وحال فيها ، ملتزم بوجوده بها ، مستمد منها ، بحيث هو هي ولكن بلون اخر اذا صح التعبير ، يبدو أن هذا العقل والفكر كأنهما يفيضان عن المادة ، يزيدان عليها ويعلوان فوقها بشكل من الاشكال ، دون أن يتحرر العقل من حتمية سننها وقدرها ، يبدو أن هذا العقل يستطيع

بدوره أن يؤثر فيها وأن يفعل بها ، وكأنه لا يزال هنالك شيء عالق من عقلانية هيغل Hegel ومن مفهومه للعقل للفكرة المطلقة في هذا الذي يعبر عنه ماركس وانجلس بثوب العقل أو الفكر الفضفاض الذي يفور فوق مرجل وقدر المادة ، وكأنه يضيف اليها شيئا ويزيد عليها أمرا .. ويعني بذلك – دون أن يلمح اليها مباشرة – الارادة والوعي والحرية . ويقول انجلس في ذلك :

« Les répercussions du monde extérieur sur l'homme, dit Engels, s'expriment dans son cerveau, s'y reflètent sous forme de sensation, de pensée, d'impulsion, de volition, bref sous forme de « tendance idéale », et deviennent, sous cette forme des « puissances idéales ». Si le fait que cet homme en général « obéit à des tendances idéales » et laisse « des puissances idéales » exercer de l'influence sur lui, -- si cela suffit pour faire de lui un idéaliste -- , tout homme en quelque sorte normalement développé est un idéaliste - né et, dans ce cas, comment peut - il y avoir encore des matérialistes ?. »

« ان تأثيرات العالم الخارجي على الانسان ، كما يقول انجلس ، تظهر في دماغه ، وتنعكس فيه بشكل صورة حسية أو فكرة أو نزوة أو ارادة ، وبكلمة ، في شكل نزعة مثالية ، وتصبح في هذا الشكل « قوى مثالية » . فاذا كان واقع هذا الانسان ، في العموم ، هو « أنه يذعن لنزعات مثالية » ، ويترك « هذه المثالية » تمارس تأثيرها عليه – اذا كان ذلك كافيا لكي يجعله مثاليا – فان كل انسان توفرت له بعض التنمية (العقلية) هو مثالي بحكم الولادة ، وفي هذه الحال ، كيف يمكن أن يوجد بعد ماديون ؟ .. » .

ويؤكد كارل ماركس بشكل أقوى أيضا حقيقة العقل أو الفكر وفعالية القوى النفسية والروحية ، دون أن يتنازل في ذلك عن شيء من نظرته المادية ، في مثل العنكبوت ومثل النحلة ومقابلة صنعها بعمل الانسان ، في قوله :

« Mais ce qui distingue d'abord le plus mauvais architecte et l'abeille la plus habile, c'est que le premier a construit la cellule dans sa tête avant de la réaliser dans la cire. A la fin du travail se produit un résultat qui, dès le commencement, existait dèjà dans la représentation du travailleur d'une manière idéale. Par conséquent, ce n'est pas seulement une modification de forme qu'il effectue dans la nature, c'est aussi une réalisation dans la nature de ses fins; il connaît cette fin, qui définit comme une loi les modalités de son action et à laquelle il doit subordonner sa volonté. »

« ولكن الذي يميز أولا المهندس الاقل كفاءة عن النحلة الاكثر شطارة ، هو أن الاول يتصور ويبني الخلية في عقله قبل أن يحققها في الشمع . وفي نهاية العمل تحدث وتثمر النتيجة التي كانت منذ البداية موجودة في تمثل الصانع بصورتها المثالية . اذا فالصانع البشري لا يقوم فقط بتبديل الشكل والصورة في ما يفعله بالطبيعة . ولكنه يحقق في الطبيعة وينجز أهدافه . انه يعرف هذا الهدف،الذي يحدد ، كسنة ، ظروف وطرق عمله ، وهو يخضع ارادته لهذا الهدف» .

وفي الواقع ، ودون أن يلفظ ذلك ماركس بشكل صريح ، نرتفع بهذه المواجهة الى مستوى اخر ، مستوى المعرفة التي يمتاز بها الكائن البشري عن سواه ، والمعرفة طبعا لا تتم بدون اطار الحرية التي يتميز بها العقل في حكمه على نفسه وفي مواجهته للافكار التي هي – وفق التعبير الماركسي – انعكاسات الاشياء في الفكر ، واستكشافه لسنن علاقات بعضها ببعضها الاخر ..

وينتقد ماركس وانجلس بشدة النظرية المادية الميكانيكية للوجود – أي المحض مادية اذا استطعنا التعبير :

« La doctrine matérialiste, dit Marx, d'aprés laquelle les hommes sont les produits des circonstances et de l'éducation, oublie que les circonstances précisêment, sont modifiées par les hommes, et que l'éduciteur lui-même a besoin d'être éduqué. »

فيقول ماركس :

« ان العقيدة المادية التي تفرض بموجبها ان البشر هم نتاج الظروف والتربية ، تتناسى أن الظروف يبدلها الناس أنفسهم ، وأن المربي ذاته هو في حاجة الى التربية والتثقيف » .

ويضيف الى ذلك انجلس Engels :

« Il n'y a pas, comme d'aucuns en arrivent à l'imaginer, d'action automatique des conditions économiques; les hommes se font à eux-mêmes leur propre histoire, mais dans un milieu donné qui les conditionne. »

« فليس هنالك ، كما يتخيل ذلك بعضهم ، فعلا وأثرا آليا للظروف الاقتصادية : فالبشر هم الذين يصنعون لانفسهم تاريخهم ، ولكن في بيئة معينة يخضعون لظروفها وشروطها .. » .

واذا استرسلنا في هذا التأمل والتفكير ، تبرز الماركسية في تصور واضعيها الاساسيين، كنظرية انسانية للانسان un humanisme تضع الانسان ، على حد تعبير فويرباخ Feurbach على قمة الوجود، وكالفرض الاساسي للفلسفة ، عوض أن يكون هذا الفرض الله أو الكائن المطلق ، أو العقل المطلق للكون ، وهو فقط ما ترفض الماركسية اعتماده واعتقاده من الروحانية ..

ونحن ان أبدلنا كلمة المادة – التي تعني كل شيء ولا تعني شيئا محددا في الواقع كما أشرنا – بكلمة الطبيعة nature ، على غرار تسمية الفلاسفة اليونانيين الاقدمين ، لرأينا أن ماركس لا ينفصل عنهم أبدا ، الا ربما في تشديده على التناقض الاقتصادي كعنصر أساسي في تطوير المجتمع . ولا فارق كبير ، فيما عدا ذلك وفيما عدا هذا التطبيق العملي المحدود لنظرية الصيرورة والتناقض ، بين ماركس وبين التفكير اليوناني للفلاسفة المعروفين بال Présocratiques أي قبل سقراط ، وبينه وبين سقراط وأفلاطون ذاتهما . ولا يعقل أن

يكون ماركس قد حصر اهتمامه بهراكليتس وديموقريطس دون الاخرين .

فالماركسية يجب أن نفهمها ارتدادا ورد فعل عنيف على الفلسفة الاكوينية ومثيلاتها المنتسبة في النهاية الى وجه من وجوه التفكير الارسطوطاليسي ، الذي لم يدرك بعض الباحثين مواجهته الشاملة ..

والماركسية ، كنظرة مادية الوجود ، أي طبيعية في المعنى اليوناني القديم ، أي كنظرية لا تستقدم عنصرا من وراء الطبيعة لتفسير الظواهر المادية وتسلسلها ، هي اتجاه في التفكير لازم العلم في القرنين السابقين ، وكان مظهرا في الواقع لما يسميه ديكارت وكلود برنارد بالنهج الاختباري أو التجريبي Méthode Expérimentale . وكان الصراع لا يزال قائما مستعرا انذاك بين النهج الفلسفي والروحاني الالهي لتفسير معالم الكون وبين النهج العلمي المتوضح من مشارفة أوروبا لتراث اليونان وللمناهج التي أوضحها بيكون Bacon وجليلي Galilée ونيوتن Newton وديكارت Descartes وكلود برنارد Claude Bernard وسواهم ، من أن الاختبار هو قاعدة العلم ..

ونحن اليوم ، وقد تعدينا مرحلة هذا الصراع بين ارباب المادية وأرباب الروح ، فيما كشف لنا عنه العلم الحديث من أسرار للمادة تجعلها ماهية لطيفة يملؤها الفراغ وسط ازدواجية وحركة الشحنات الكهربائية للجزئيات المذبذبة الصغيرة المتناقضة ـ والمادة في كل ذلك تتحول الى طاقة ، والطاقة بدورها تتكثف في مادة ـ فانه يتوضح لنا أن الحدود بين الفلسفة المثالية والفلسفة المادية تكاد تتقلص وتضمحل .. فموضوع التناقض بين المادة والعقل لم يعد ماثلا لدى معظم العلماء، لانهم تجاوزوا في أبحاثهم مفهوم المادة ومفهوم الروح كما كانت المسألة مطروحة على بساط البحث والنقاش في الجيل التاسع عشر مثلا .. فالمادة انما هي ، في نهاية التحليل والتدقيق ، صورة حسية لا أكثر ، ونكاد نقول هي من صنع حواسنا ، لو لم تكن حواسنا ذاتها شيئا من هذه المادة ، من هذه الطبيعة .

على أن ماركس شاء أن لا يكمل تحليله الاخير للاشياء وتوقف عند منتصف الطريق في تقرير خواتيم أبحاثه ولم يتعمق في تحليل معرفتنا للاغراض الخارجية كما فعل ذلك كنت Kant ، ولم يشأ أن يتوغل أبدا في غيبيات العقل وفي ما وراء الطبيعة Métaphysique خشية أن يعود من جديد الى فلسفة أخرى للثنائية ، لن يستطيع تجاوزها بسهولة .

ولو أنه حاول ذلك التحليل الاخير لظهر له :

أولا : أن التكلم عن المادة وعن العقل أو الروح وتناقضهما ليس له أي معنى .. فلنسم الحقيقة الاولية للوجود أو العنصر الاولي للكينونة مادة ، ولنسمها روحا او عقلا فالامر هو ذاته ، طالما أنه في الحالتين لا يوجد فناء .. وكان العالق في ذهن معاصريه أن المادة تفنى ، وهي بالحقيقة لا تفنى أبدا ولا يمكنها ذلك ، بل هي تتحول الى شكل اخر أو الى طاقة . فالمادة كما تبدو لنا في الظاهر وكذلك الروح أو العقل أو سواهما من التسميات هما مظهر وصيرورة لجوهر ما وراءهما هذا الذي لا نستطيع أن نقرر ماهيته بواسطة العلم فقط ، كما حدد ذلك « كنت » Kant وكما أوضح ذلك معظم علماء جيلنا ..

ثانيا : أنه ، في الحالين وفي المواجهتين ، يبدو الوجود المحض كأنه الحامل للمظهرين ، والمضفي صفته ـ أي صفة الوجود ـ عليهما ، والحال فيهما في كل آن وحال .. وهذا الوجود يلازم المادة والعقل أو الروح في جميع تحولاتهما ، وكأنه هذا المستوى الورائي ، هذه الشاشة البسيطة اللطيفة القائمة بذاتها التي تتجلى عليها صور الداخل والخارج والباطن والظاهر . ولو لم يكن هذا الوجود المحض قائما بذاته من خلال جميع هذه التبدلات والتغيرات والتلبسات والتطورات، لكان يفنى بفنائها ويتجدد بوجودها ، وهو تقرير ليس له أي معنى .. لان مفهوم الوجود هو أنه قائم لا يفنى ، وبالتالي لا يتحول .. وهكذا كان كل من هيراكليت وتاليس دي ميلي Thalis de Milet على حق .. من منظارهما فيما ذهبا اليه .. هذا يدعي التغيير الدائب وذاك لا يرى الا البقاء والديمومة والثبات .

ثالثا : اذا لكان توضح لماركس ولانجلس ، في استطلاعهما المستعلي الاخير ، الذي هو امتداد طبيعي لهذا الطفو والزيادة ، في مستوى العقل ، للعقل على الصور الفكرية المنعكسة فيها الاشياء ، أنه لو تصورنا باطن الانسان أو باطن المدركة فيه على شاكلة المرآة تعكس كل ما تدركه حواسنا ، لما استطاعت أن تتدبر ما تعكسه وأن تستنبط سنن العلاقات الرابطة بين هذه الصور ، ولا أن تعرف هذه الصور وهذه العلاقات ، لو لم تكن هذه المرآة مستقلة ثابتة بحد ذاتها وبفضل تكوينها الاخير عن المجاري السائلة فيها من ينابيع الافكار والعواطف والصور الحسية .. فكيف يمكن للمتحول أبدا بوتيرة الجريان المتبدل فيه ، أن يدرك هذا الجريان .. أو كيف يستطيع المسافر في صاروخ صامت أن يدرك أنه مسافر مسرع ، ان لم يكن هناك قياس ثابت نسبيا يعود اليه في تقريره لتوقفه أو سرعة انطلاقه .. والتحرك لا يقوم الا بالنسبة الى شيء اخر لا يتحرك نسبيا .

رابعا : أن هذه المرآة ، المصورة العقلية ، العارفة الذكية ، لا يكفي أن توجد ثابتة مستقرة لا تتبدل ، انما هي بحاجة ، لكي تعرف مجرى هذا السيلان أن يكون فيها ضرورة وعي لاغراضها ثابت لا يتبدل ولا يزول ، أي أن تستشعر ، بهذا الحس الداخلي الذي هو الوعي أي المعرفة ، تلاحق الصور وتسلسل الانعكاسات .

وان نحن نفذنا بالجدلية الى ينبوعها الاول ومنطلقها الاخير ، ومن قياس اعتبارنا لضرورة التحام أزواج التناقضات الظاهرة في الذي يتعداها من تاليف جامع ، كما يعبر عن ذلك هيغل Hegel وماركس نفسه في نظرية زوال التناقضات الطبقية في المجتمع الانساني الاخير الموحد والموحد ـ فانه يالف منطقنا ـ طالما أننا نعالج فلسفة تعبيرية للوجود لا تزال في موضع الاختبار ـ أن نتصور هذا التاليف الاحدي اللطيف البسيط ، الجامع في سكونه وانطوائه وباطنه لجميع الازدواجيات ، هذا التاليف الاخير للوجود بما فيه وعليه والذي يتعدى ال Thèse القضية أي المادة وال Antithèse أي زوج التقابل أي العقل أو الروح في ال Synthèse أي في وحدة التاليف .

وما أقرب هذا التصور من تأملات العلم الحديث ومن انجذابات بعض كبار الصوفية في استطلاعهم لحقيقة الوجود ، نذكر للدلالة والمناسبة فقط قول أحدهم :

« ان الله لطف نفسه فسماها حقا وكثف نفسه فسماها خلقا ».

وما أقرب ذلك وأبينه من نظرية التعقد والتكثف complexification من البسيط واللطيف نسبيا الى الاكثف والاكثر تعقيدا في سلم صعود التكوين المادة الى خلايا الحياة ، ومن ثم الى الكائنات الحية ، ومنها الى الانسان ، ومن أسفل الى عل ابداء هذه النظرية التي أوجدها ، لوصف حركة تطور الوجود الظاهر،العالم الانتروبولوجي تيلارد دي شردان Thilard de Chardin .

ان ما أوردناه في ايجاز الاسترسال ما أمكن ذلك ، انما كان للاشارة الى غنى النظرة الماركسية للتراث وللوجود ، اذا استطعنا ان نستوعبها على ضوء الاختبار العقلي اليوناني الاصيل وهي التي انبثقت من أحد فروعه الباسقة وأن نتوضحها في منظار تأملات رجل طلب الحقيقة الاخيرة للوجود واجتاز مراحل طويلة وشاقة وجدية من سلوك العقل اليها ، ولكنه توقف عند احدى المنعطفات الكاشفة وآثر أن لا يتعداها ، خشية التوه ، كما سبق لغيره في بعض الازدواجيات ، أو الثنائيات .. هذا اذا ما درسنا هذه المواجهة مجردة عن الشروح والزيادات والتأويلات ، وخاصة عن طرق تحقيقها والتعرف بها واعتمادها في مجالات العمل الفردي والاجتماعي ، هذا التناقض الجدلي الاخر في الواقع بين روعة الرؤيا الاولى التي تصورها ماركس وبين ما انزلقت ونزلت اليه عمليا يوم أضحت اداة في يد البشر ، هذا

التناقض الجدلي النفسي الاخير جعل ماركس يسر الى بعض أصدقائه: « أنا لست ماركسيا » « Je ne suis pas marxiste » .. وربما كان من القليلين الذين كانوا حقا كذلك .. ولو تلفت كـل مؤسس عقيدة أو باعث فكرة ــ في حقل الدين والاجتماع والسياسة علـى السواء ــ الى ما فعله ويفعله أكثر المنتسبين اليها ، لاعتدوا بالاعلان ذاتـه ..

فالماركسية اذا منطلق ومنظار ، وليست وصولا وغاية ، وهـي مرحلة من مراحل التفكير البشري ونهجا للعقل والعمل ، وليست هي النظرية المطلقة التفسيرية الاخيرة للوجود . وان نحن ، في التزامنا المتعامي عـن كـل ذلك وفي عصبيتنا السياسية الجاهلة ، جعلنا منها حقيقة أخيرة مطلقة ، فاننا نكون واقعا وفعلا نناقض مبدأ النظـرية الماركسية النسبية ذاتها .. وفوق ذلك لا تعود تماشي التطـور في مسيرته الابداعية ، والتطور خلاق أبدا من خـلال جميع الصـور والتحولات التي يبرزها .. ومتى توقفت العقيدة عن استيعاب التطور، تكون قد التزمت بمنطق الفكر ، لا بوحي العقل الارفع أو الكلي ، أي بتقليد الفكر المنقوش في النفوس ، والمتمثل بثقله في أقنية الـواقع وفي مجاري العقول ومشاعر القلوب ، فيقع الصدام ويعلو التنافر بين الماركسية المعمول والمعتد بها وبين الواقع والتطور الـذي ينساب متغيرا في أودية الزمان وينقشع ويتجلى في ألف ربيع أخر للحياة ، وهو منطق التناقض جدلي ذاته ..

وهنا أيضا نحن في ما يتعدى الماركسية ..

***

مـن هذا المرتقى يصح بنا الانتقال الى مواجهة أخرى تظهر فيها الماركسية بأنها رغم تصعدها في محاولة الشمول واحاطة المعرفة التي توافر على جناها ماركس في مجالي استكشافه ، لم تتشوف ولم تدرك جميع التناقضات الجدلية التي تكون حياة الانسان ، نذكر منها ، عدا لا حصرا ، لضيق المقام :

١ ــ التناقض القائم بين الحرية والنظام ، كل نظام ، أي بين العقل النازع الى الحرية والابداع الدائب وبين الفكر ــ على اعتباره انعكاسا للاشياء الخارجية ــ وهو المتجسد في التراث وفي المؤسسات وفي السنن والقوانين وفي التقليد ، وفي الاستكانة لكل واقع وتقليد. فالذهنية البرجوازية أو ذهنية صغار البرجوازيين ــ كمـا ينعتهم ماركس ــ لان كبار البرجوازيين أسهموا على حد تعبيره اسهاما مبدعا مدهشا في تطوير الصناعة واستخدام الالة وفي الاتجار فـي احدى مراحل تطور الراسمالية الفردية ، فكانوا طليعة عصرهم ــ هذه الذهنية لصغار البرجوازيين petit bourgeois هي في الواقع ذهنية الفكر الصنم ذاته القابع في مسالك تقليده ، لا ينساها ولا يتحول عنها ، ولا ينظر بعيدا في اعتماله اياها .. فهو يعيش يومه بيومه ، أو يومه ليومه ، على مثال أولئك الوجهاء ــ الصغار في نفسيتهم من أبناء الريف وأحياء المدن ، يقومون بما توفر في ذهنهم مـن زاد ماضيهم واستثارة حلقة سمعتهم ، بواجب حاضرهم .. ولكانوا أفضل الناس تتميما حرفيا لواجب العيش لو لم تعمر حافظتهم وينتـوي قصدهم وتتسمر تصوراتهم ومناهج عيشهم برغبـة الظهور وبأصداء القالـة وبتفاهة الانجذابات وسخافة الاهتمام بالنفس ..

٢ ــ التناقض القائم بين الانسان كمكنة للتحقق وكطاقة للعقـل وللحياة وللقيم مستبطنة في ذاكرة خلاياه وأغشيته التي تهيمن عليها سنن الوراثة ، وتحدد اتجاهه في قصد التطور منه وغاياته فيه ، وبين الانسان المجتمعي كما هو عليه في زمن ما وفي مكان ما وضمن تـراث حضاري معين . فالانسان ليس انعكاسا فقط لما حوله ولافلاك مجتمعه، بل هو طاقة تتجلى فيها ومنها حركة الابداع الدائم للوجود .. ولذا ميزنا بين الانسان الفرد كمحض طاقة كامنة مستبطنة ، وبين الانسان الشخص أو الانسان العقل الذي هو طاقة متحولة متحققة .. وتبـرز اذن في هذا المنحنى أهمية المعرفة النفسانية للانسان ، التـي هي فائضة مستعلية عن واقع انعكاس حواسه وعالمه ، وكيف يجـب أن تراعي أنظمة التربية ومناهجها ومقاصدها حقيقـة هذا الانسان .. وقديما قيل : بداية المعرفة هي معرفة الذات ..

٣ ــ التناقض الماثل فـي تنوع الانسان اجناسا ولغات مختلفة ، وتراثا متباين المستويات وأرضا ومناخا وانتاجا ومزاجا ، وقوميات ذات طابع خاص .

وقد حاول ماركس ، في نزعته للمواطنية العالمية أو للدولية في الشعور le sens internationaliste ، وفي توقه لاعتبار المساواة أسا جوهريا في تصوره للانسان ــ ولا شك أنه كان ليهوديته المتعدية في شمول ولائها لجميع الامم والشعوب دور في ذلك الشعور ــ وامتدادا لفكرة الصراع العالمي بيـن البروليتاريا المتضامنة وبين مستغليهـا المتجمعين المتضافرين على حد تصوره على نطاق عالمي ــ لقـد حاول ماركس أن يتناسى فعل الحس القومي وأثره البالغ في المجتمعات ، وانه في النهاية تعبير لاحدى الحلقات المجسمـة لحيويته والحاصـرة تباعا لنشاط الفرد ، والعاكسة لشخصيته والمتباعدة حوله بشكـل تتوسع فيه الحلقة تلو الاخرى وينحسر تدريجيا ارتباط العلاقة به ، وهي التي تبدأ بشكل عفوي طبيعي بالعائلة ، ثم بالقرية أو البلدة أو الحي ، ثم بالمنطقة أو بالمدينة ، وثم بالوطن وبالقومية التي هي مجلاه ، وبعدها بالمنطقة الاوسع من التراث واللغة والجوار والمعاملة ، وثـم بوحدة النضال ، وأخيرا بالبشرية .

وفي هذا الاستبصار ، يتبين أن الاشياء الخارجية تنعكس بواسطة الحواس في الانسان ، ولكن الانسان بدوره يعكس شخصيته وغناهـا الفائض الباطن والظاهر ولدنها الاسطوري والاجتماعي بشكل خاص في العائلة وفي القومية . ولا بد من قيام هذا التنوع القومي ، اذا كـان علينا أن نقبل ــ ولا مناص من ذلك ــ باستنتاجات ونهج علم جديـد متطور أسهم العلماء الالمان بشكل خاص في وضعه ، وهو الجغرافيـا la géopolitique . ويذكرنا هذا العلم الجديد بما ذهب اليه العقل البشري في السابـق في ما يسمـونه قاعـدة المنـدلا Mandala الهندية . وفي الدراسات الجامعة المستمدة مـن نظرية الان يانغ (In Yang) في الصين ، وبعض تأمـلات
هذا التناقض هو في الواقع وجه من تناقض الانسان التاريخي
افلاطون واليونانيين الاقدمين ، واعتبارات ابن خلدون وسواه .
المستمر مع الطبيعة nature

فالقومية ليست نتاجا لمرحلة رأسمالية معينة يستثيرها الانتـاج الصناعي ويبديها ، وكذلك العائلة ليست مؤسسة ترافق مرحـلة من تقلص الانسان في فردية قوقعته ، بل كلاهما مظهر حيـاتي جوهـري لما يمكننا توضيحه بنزعة الانسان الرئيسية بأن يسمي الاشياء ويغلفها برمز الصورة المعنوية أو بلغز الكلمـة ، أو بأشكال التعبير الفني والادبي ، ليعود فيلقى نفسه فيها ، مثالا صغيرا لآية الخلق وتمثلا بفعل المبدع الكبير : وما خلقت الانس والجن الا ليعبدوني ، أي ليعرفوني.. وفي سفر التكوين طلب «الوهيم» أي اله الالهة العبري من آدم المنشور مـن حمئة الطين اللاهب ونـار المعرفة ، تفاحة العقل ــ علـى غرار اسطورة بروميتي Prométhée اليوناني ــ ان يعطي لجميع الكائنات الحية أسما ، وكأنه بذاك الفعل يبدعها مجددا . وفي البـدء كـانت الكلمة .. أو كان العقل ..

ثالثا ــ التناقض الماثل بين الانسان ككائن يبغي في صلب التكوين ووصلة التطور فيه ، أن يعرف كيفية تسلسل الاشياء من عللها الظاهرة ــ ومعرفة الكيفية هي ما نسميه بالعلم على شموله التاريخي المتصل ، والعـلم ينحصر بالكيفيـات le comment des choses ولا يمكنه تجاوزها ــ وبين التطلب الانساني الاصيل لمعرفة حقيقـة الاشياء ووحدة هذه الحقائق الظاهرة ــ هذه المعرفة التي نسميها في

ــ التتمة على الصفحة ٦١ ــ

في ما يتعدى الماركسية

– تتمة المنشور على الصفحة ٨ –

أعلى استطلاعها واستجلائها المعرفة الجوهرية او الحكمة أو العرفان أو الاختبار الروحي l'expérience mystique ..

أما العلم بكيفية الاشياء فلاجل معرفة سنن علاقات الاشياء بعضها ببعض لكي يتمكن الانسان من معالجتها ، والتصرف بها ، واستخدام طاقاتها في عيشه .. وهو الفعل الحضاري الاول ، من حيث المستوى لا من حيث السبق في الظهور . لان هذه المعرفة للكيفية لم ينفصل عن العرفان واختباراته وأساطيره وخرافاته mythe بادىء ذي بدء ..

أما العرفان أي المعرفة بحقيقة الاشياء ، فللاطمئنان والراحة والسعادة ، ولحصول هذا اليقين – لستر جامح فيها – ترتضيه النفس ويتطلبه العقل ، وربما لتحسس الانسان المستبصر المستشف في النهاية بكون هذه الاشياء المنعكسة على شاشة فكره او في فكره ، هي محض صور حسية ، يبقى ما وراءها بعد معرفتها ، وما يحملها وما يبرزها للوجود مجهولا كما كان ذلك قبل الادراك الحسي أو العقلي لها ، أي هي رموز تروي لنا أساطير التكوين الماثل للاعين وللاذان وللشم واللمس والذوق ، كأعمى يخبر عن صورة ذاته أعمى اخر بواسطة اللمس والمكالمة .

والدين والفن والموسيقى ليست جميعها الا محاولات لتفسير ولتحديد هذا الغيب ، هذا المجهول من حقيقة الاشياء بالرمز اليها وبالدلالة عليها وبالاشارة الى محتواها وبالاساطير وبالكتب الموحاة والمنزلة ، وبالوحي ذاته وبالشهود وبالايمان ، في فعل انعكاس الانسان على ذاته ، أو انعكاس المادة ، في المعنى الذي اوضحناه ، على ذاتها كما يتصور ذلك ماركس ، أي انعكاس طاقة الوجود على نفسها في فعل المعرفة .

اذن فالدين ظاهرة عقلية واجتماعية لا بد من قيامها وصيرورتها.. وهو أيضا مظهر من أوجه نشاط العقل في الاستكشاف وفي تسمية المجهول ..

وفوق ذلك ، فالدين مجلى لبعض القياسات للخير والشر والرذيلة والفضيلة والاطمئنان والقلق ، والتصويب النفسي والانحراف، والتأليف النفسي والجمع والتفرقة الصحيحة ، أي منطلقا اخر لتحديد وايجاد بعض الرموز الجوهرية في حياة الانسان وفي نظام عيشه ، والتي هي القيم . وهذه القيم لا يخلقها الفكر – وهو محض انعكاس لما يجري من رموز الاشياء في الخارج – بل يتحسس بضرورتها العقل ، ويميزها ويبدعها ويسميها ..

ولا بد لنا في هذه المشافهة من تصحيح عبارة وردت للينين في تصوره الخاطىء للمادة – يبرأ منها ماركس والعلم الحديث ايضا :

« La matière est une catégorie philosophique ou la désignation d'une réalité objective qui est copiée, photographiée et réfléchie par nos sensations et qui existe indépendamment de nos sens. »

((ان المادة هي حيز ومفهوم فلسفي ، أو هي التسمية التي تطلق على وجود غرضي قد نقل وصور وعكس بواسطة الحواس ويوجد مستقلا عن الحواس)) .

واننا اذا اعتمدنا منطق الفيزياء العصرية وعلم الحساب التجريدي فان المادة ، كوجود ظاهري وحسي ، هي غير قائمة وغير موجودة مستقلة عن الناظر اليها وعن مدركها .

والانسان ، في نهاية التحديد وبالحقيقة والواقع ، هو كسائن عارف – والمعرفة لا الانتاج هي التي تميزه عن سائر الحيوانات .. ولولا المعرفة لما توفر له القيام بأي انتاج .. على ان الانتاج المحصل والمتحقق ينعكس فورا على المعرفة أو في المعرفة ويزيد في طاقة ابداعها له من جديد ، وهكذا يتغذى العقل معنويا ويثرى من صنع ابداعه ، الى أن يتوفر له تاريخيا أن يبرز فجر حضارة الالة ، التي لا حد لتصور تطورها المقبل ، خاصة بعد ابتداع بكر لها وحافظة ، لا عقلا ، في الادمغة الالكترونية المستحدثة ..

ويتصور أحد العلماء الاميركيين – في استرسال منطق العلم والخيال – ان هذه الادمغة الالية قد تتطور وتتحسن وتلطف في دقة آلاتها وحركاتها الى درجة تمكن العقل بأن ينتقل اليها . وهو تصور جميل في كل حال .

***

وفي مجال اخر من مجالات تحقق الماركسية ، وفي مستوى تال نرى أننا تعديناها به : فان العلم الحديث ، في ازدهاره وتطوره المشترك المتفاعل بين غرب شيوعي وغرب ديمقراطي رأسمالي ، تجاوز منذ أمد نطاق العلم التطبيقي ، كما عرفه ماركس في بداية انطلاق المعرفة الاختبارية في القرنين السابقين ، وأخذت مفاهيم وتصورات العلم الحديث تتوضح وتتطور وتنتشر في الذهنية العامة في البلدان الاشتراكية الماركسية وفي البلاد الرأسمالية على السواء ، مما أدى الى نتيجتين رئيسيتين :

أولا : انه لم يعد بالامكان حصر العلم ضمن الاطار المعتقدي الماركسي وتوجيهه بمحتوى العقيدة .. وقد تحرر العلم اخيرا في الدول الماركسية ، وتحرر العلماء من أية سيطرة في التوجيه النظري ، فيما عدا مفاهيم العلم ذاته .. لانه في الواقع ، وفي النهاية لا يوجد علم ماركسي وعلم رأسمالي ، بل العلم واحد في تفكيره واستكشافه ونهجه وتصوره عبر الحدود والشعوب والقوميات واللغات ...

بقي ان يتحرر الفن والادب من قوالب الالزام وأن يكتفى له بالالتزام ، وأن يتحرر التعبير العادي ونشر الكلمة من اطار التحديد والتوجيه ويكتفى لهما برادع المسؤولية المعنوية والقانونية .. وقد أضحت حرية الكلام العادي والتعبير القولي واقعا وفعلا في حمى القانون والدستور .

وبانتشار المعرفة على نطاق واسع لم يشهده التاريخ سابقا ، فان مرحلة تحرر الادب والفن من جميع القيود ، فيما عدا مقاييس الجمال والالتزام الاجتماعي ما أمكن قادمة لا ميزة لها ، على العالم الماركسي .. فالحرية من صلب العقل ، ولا يمكن معاكستها الا بنظام العقل ذاته ..

ثانيا : ان المفاهيم العلمية ، على تنوعها واختلافها ، آخذة بالانتشار بسرعة كبيرة في أوساط الجماعة . وفوق ذلك فان التبادل في الافكار وفي المنجزات قد اضحى قويا شديدا متلاحما عبر الحدود بين العالم الديمقراطي والعالم الماركسي بواسطة الاذاعات والتلفزيون والاختلاط السياحي المباشر وزيارة العلماء وتبادل النتاج العقلي وانتقال التآليف والمجلات – وقد فتحت يوغوسلافيا مثلا أبوابها لجميع ابناء العالم بدون تمييز ولا تفريق ولا قيود ..

ونحن نشهد اليوم مرحلة مخاض في ذهنية الجماهير في البلاد الغربية والماركسية والعالم الثالث على السواء ، ناجمة عن التفاعل المتزايد بمفاهيم العلم وتغلغل تصوراته في الذهنية العامة للجماهير ، فيما عدا ما نشهده من بعث الحضارات القديمة والتقائها عبر الحدود بمدنية الالة والعلم .. مما من شأنه أن يبدل كثيرا من نظرة الانسان الى نفسه والى الوجود ..

ونظن ان المعتقدات الدينية نفسها ستتأثر حتما بفعل هذا التفاعل والتداخل والاشتراك والتبدل ، ولن تستطيع ان تبقى على

ما هي عليه الان من مواجهات معتقدية ..

وحيث ان نتاج العلم ونظرياته ومفاهيمه أضحت متجاوزة لاكثر ما كان يتصوره العلماء في منتصف القرن السابق ومطلع الجيل الحالي ذاته ، فانه لا مناص من ارتقاب تبدل المواجهات ، وحلول نظرة جديدة للوجود تبدل أو تعدل أو تطور النظرة الماركسية أو تستبدلها بنظرية أخرى . وهكذا دواليك كلما تغيرت الاسس التي يقوم عليها العلم في استطلاعه .

وكان يقول ماو تسي تونغ Mao Tsé Toung لكاتب أميركي صديق له ما معناه : « بعد عشرين أو خمسين سنة ، سيرى الناس ان ماركس ولينين قد تعداهما التطور والزمن . وكانا من الحجم البشري المعتاد .. » .

***

هذا من وجهة التأثير المعنوي للافكار الجديدة الماركسية . أما من وجهة التقنية ، أي تطبيق العلم في استثمار وسائل الانتاج وتطويرها وفي بناء المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التي تنشدها الماركسية ، فقد يكون التأثير المباشر أبلغ وأحكم ..

فالقضية التي يواجهها الانسان في النهاية في نضاله الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هي ولا شك منع استغلال الانسان لجهة أخيه الانسان .. ولكن هذا الاستغلال ينزع اكثر وبطبيعة تناقضه وبفضل استخدام الالة ، الى التقلص والزوال . فالاستغلال الاقتصادي للانسان يضحي اكثر فاكثر ، بفضل نمو التقنية العصرية ، التي لم يتخيلها احد في القرن السابق ولا في بدايات هذا الجيل ، استغلال الالة بواسطة الانسان ، لان قدرة انتاج الالة لم تعد تتناسب مع العمليات البسيطة التي يقوم بها العامل لتحريكها .. وقد تتحرك تلقائيا ، كما سنرى في استخدام الاتمتة automation أي في تطبيق علم السيبرنيتيك cybernétique فالادمغة الاليكترونية الصغيرة والكبيرة هي التي ستضحي ، اكثر فاكثر ، تحرك هذه الالات وتدفع بالانتاج الى أسواق الاستهلاك .

والقضية الرئيسية التي أخذت تحتل مكانا رئيسيا في جميع الانظمة على اختلافها ، ماركسية كانت أم اشتراكية اجتماعية أم رأسمالية ، هي الجدوى في الانتاج .. فالسباق على الانتاج وعلى رفع مستوى الفرد يحتم النظر الى جدوى الانتاج ، أي الجدوى القصوى للعمل البشري ، في عالم يتكاثر عدد سكانه بشكل مرعب يكاد يتجاوز شرعة مالتوس Malthus التي حاول أن ينقضها عبثا كارل ماركس ، ويقتضي ليس فقط اعتماد الجدوى في الانتاج بل ايضا اعتماد التقنين في الانتاج البشري وتوجيهه – عوض التكاثر الذي لا حد له – الى استنباط الافضل والاسلم والاصح عقلا ووراثة وجسدا .

والتسابق على اظهار أفضل الانظمة ، من حيث جدواها في الانتاج بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بشكل خاص ، وارتباط ذلك بمفاهيم القوة الاقتصادية والعسكرية والسياسية النامية المطلقة التي يمكن أن تتوفر لكل منهما في سياق تنازعهما على السيادة العالمية ، كل ذلك يسرع في جعل الجدوى مقياسا لكل انتاج ، أية كانت ظروفه بالنسبة للانسان ..

وهذا الاعتبار يفسر لنا كيف أن الاتحاد السوفياتي والدول الماركسية اقدمت على اعتماد « الاتمتة » في الانتاج ، بعد أن هاجمت علم السيبرنيتيك زمنا واعتبرته علما ونهجا برجوازيا للانتاج ، فما لبثت أن تبنته وأخذت تطبقه بشكل منهجي ، بعد ان بدأ يتعمم استخدامه في الصناعة الاميركية والمصارف وسواها من المؤسسات ، وكانت الولايات المتحدة سباقة في هذا المجال .

كما ان هذا الاعتبار لجدوى العمل البشري ، هو الذي أوحى بالاصلاحات الكبرى التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي والتي قامت ببعضها الدول الماركسية الاخرى ، هذه الاصلاحات المعروفة باسم اوسكار لانج Oskar Lange في بولونيا ، و Otasik واوتاسيك في تشكوسلوفاكيا وليبرمان Lieberman وترابيزنيكوف Trapeznikov واجنبيجيان A. Aganbegyan وفدرنكو Federenko ونميتشينوف Nemetchinov وسواهم في الاتحاد السوفياتي والذين جاءوا بعد فوزنزسكي Voznesensky العالم الشاب والمخطط المشهور الذي استخدمه ستالين ابان الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ثم عاد فأمر بقتله نظرا لافكاره .

وفي المجالات الجديدة التي فتحها ، أمام الانتاج ، تطبيق الاتمتة Automation أضحينا واقعا وفعلا وكأننا تجاوزنا مفاهيم الماركسية المعمول بها والتقليدية ..

وفي الواقع مفهوم الانتاج لاجل الحاجة ، كما يرد في الكتب الماركسية الكلاسيكية ، أضحى بحاجة الى تعديل رئيسي .. ما هي الحاجة في عالم أضحت فيه الالة هي التي تخترع الاغراض وتولد بواسطتها الحاجات لدى الناس ، ولم تعد الحاجات الطبيعية الابتدائية هي المقصودة .

وفي هذا المجال يتقارب ظلا المدنيتين الصناعيتين حتى المماثلة ..

وتنفيذ مبادىء الاتمتة في الانتاج، أي آلية الآليات، يخلق أوضاعا جديدة تماما ، وكأننا وفق التعبير الماركسي في بداية عهد تقني جديد سيفعل في تكوين نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي على شاكلته ، أو بالحري سيؤثر مباشرة في هذا التكوين .. لان الحتمية الحرفية ليست ممكنة في مستوى الكائن البشري المنفتح المتحرر الذي سيبرزه التيار الحي في مجال تقدمه ، على ما يبدو جليا – وعلى قلة هذا الانسان في كل حال فان أثره سيكون بالغا جداً ، وفق ما نتنبأ به من ازدهار هائل لعلوم النفس والمادة على السواء .

وليس من أقل نتائج تطبيق أنظمة الاتمتة على شمولها ان مشكلة الانسان المقبل لن تكون في توفير العمل والانتاج له وسبله وظروفه وفي توزيع هذا النتاج على المستهلك ، بل المعضلة الرئيسية للانسان والدولة توفير الوسائل والظروف التي يستطيع فيها المواطن ان يملأ بها فراغه الممل المضني أحيانا ، في عالم تتحرك فيه الالات تقريبا وحدها للعمل .

ونتيجة أخرى ملازمة لهذه المواجهة هو أن ما يسمونه بالقسم الثالث للاقتصاد ، أي قسم الخدمات ، le secteur serviaire

سيتضخم ويشمل بالنسبة للأقسام الاقتصادية الاخرى ، بحيث تتحول اليه معظم اليد العاملة في الحقل الصناعي والزراعي ايضا .. وهكذا يفقد تناقض الطبقات في مفهومه الماركسي من جدته ومن جدواه في كل حال ، وفي الواقع يزول مفهوم البروليتاريا في المعنى الماركسي المعروف والذي رافق نمو النظام الصناعي في القرن التاسع عشر في بعض بلدان اوروبا ، وقد أخذنا نلحظ ذلك في كل مكان ، ونرى هذا التحول ماثلا في نظرية وتطبيق الاتحادات الاشتراكية والجبهات الاشتراكية في بعض البلدان وحتى في نظرية « دولة الشعب » عوض دولة الحزب والبروليتاريا التي يمثلها في الاتحاد السوفياتي ذاته .. ومعلوم ان احدى نقاط الخلاف الصيني تكمن في هذا الاعتبار أو عدمه . ويبدو في تحقق النظرية السوفياتية طبعا معالم القومية المتوضحة من جديد لما نسميه في لغتنا التقدمية الاشتراكية « المجتمع العضوي المنصهر الواحد » .

ومن ارتقابات هذا المجتمع التقني الجديد المقبل علينا ، ننطلق لنتحدث باختصار عن تناقض اخر للانسان مع طبيعة عيشه في البيئة الاصطناعية التي خلقها لنفسه ، ويمعن في زيادة تراكيبها وتعقيدها وابتعادها عن سنن أغشيته ومشرعة نفسه وخلقه وعقله وأعصابه في ما ترتاح اليه أو تنبض أعصابه بموازاته ، هذا التناقض الذي كان ولا يزال يذكره ويحذر منه أعلام في مستوى الكسيس كاريل وسلمانوف وسواهما ..

وفي مواجهة الاضرار الناجمة في حياة الانسان من هذه المدنية الصناعية ، يتلاقى العالم الماركسي بالعالم الرأسمالي – وسط سباق التفوق في الاقتصاد والسياسة – على عدم ادراك خطورتها ، وعدم اعتما ما يمكن منذ الان لتلافيها وتجنبها ، صونا لمصير السلالة البشرية ذاتها ، ولصحة نموها ..

وفي هذا المجال ، نظن أيضا ان الانسان بدأ يتعدى الماركسية في مفهومها الضيق لا في نظرتها الواسعة التي تتلاقى مع أفضل جذور التفكير عند الاقدمين والمحدثين ومع نتاج وخبرة العلم ذاته .

***

هذه بعض التأملات ، جمعتها بما أمكن ايجازه في حديث هذه الامسية ، علها تلقي ضوءا على تطور هذا الانسان العجيب القاطن فينا ، والذي يعمل من خلال حواسنا ، والذي يدرك ويعرف ويبادر على حد تعبير فيفكينزا من جميع الوجوه التي يلبسها فينا ، ومن مختلف العناصر والاقوام والاجناس والحضارات والالوان التي يتمثل فيها ، كطاقة لا محدودة ، غنية ، فوارة ، متدافعة ، متطورة ، دافقة ، متجسدة في البؤس والسعادة ، في الضيق وفي الانفتاح ، في الباطن والظاهر ، في الغرب الماركسي وفي الغرب الديموقراطي وفي العالم الثالث على السواء .. هي ذاتها تعبر عن جوهر الوجود الذي يتجلى في الابداع الظاهر بألف مرآة ومرآة ليعود فيرى نفسه منعكسا – في تجلي ابداعه – في كل منها وفي أشرفها اطلاقا ، في وعي الانسان .

ومن مصادر الاختتام الذي تلمسناه من خلال هذا البحث الصغير، يتوضح لنا انه يعوزنا الكثير بعد لكي ندرك الانسان على حقيقته ، لاننا اذا كنا نفترض ان علم المادة قد كشف عن معظم أسرار الكيفية الظاهرة – وهو بحد ذاته ادعاء وهمي كبير – فان علم الانسان la Science de l'Homme ومعرفتنا له لا تزال تتعثر في بداياتها ...

وهذا التناقض والانشطار cette dichotomie كما يسميها بعضهم بين تقدم العلم المادي وتطبيقه وتأخر العالم الانساني ، هو المصدر الرئيسي لجميع المشاكل التي نعانيها .. وكأنه يتوجب علينا في كل ذلك أن نؤوب الى تراث الشرق ، في العالم العربي وفي ايران والهند والصين ، لكي نستطيع أن ندرك شيئا عن حقيقة هذا الانسان .

فأحوج ما نكون اليه اليوم – وقد بدأت في الواقع المعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وفي الاتحاد السوفياتي وفي بعض بلدان العالم الثالث محاولات جدية متقدمة لتنمية العلوم النفسانية وما وراء النفسانية métapsychique وللبيولوجية البشرية – أحوج ما نكون اليه اليوم انما هو لمثل هذه المحاولات والنظريات العلمية الناظرة للانسان ككل لا كجزء ، من خلال جميع نشاطاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعنوية والعقلية والروحية والحياتية ..

انما خلاص الانسان وخلاص الحضارة يكمن في هذه المحاولة وفي هذه التجربة الوجودية الاخيرة وفي هذا الاستكشاف لحقيقة الانسان التي تحاول جميع النظريات الفكرية أن تغطيها وتحجبها ، برؤية الجزء ..

فالوجودية التي نبغيها – كمظهر لفعل الانسان في الوجود ولانعكاس الوجود فيه – هي وجودية العقل الكلي ، وجودية ديمومة الانسان في جوهره في قناع الصيرورة ولباس التحول ..

كمال جنبلاط

(*) محاضرة ألقيت هذا الشهر في جامعة بيروت العربية .